غير أن لكل مدخر نفادا ، فحطت على ثالوث الطريق غبرة الفاقة، وتدسست أنياب الجوع إليهم تقطع الأحشاء ، أما المطهى فكانت تتراءى فيه صحاف الطعام ذوات ألوان ، وأفراد الثالوث لا يصيبون منها غير لفاظة تلقى إليهم على مدرجة الطريق .

وعشية شوهد غطريف من أهل الريف أنيق البزة ، تتخايل عليه أبهة الجاه ورونق الثراء : عباءة موشاة ، وطربوش لامع الكى بميله على فوده ، وفى يده عصا مقبضها من ذهب أخذ يضرب بها الهواء ضربات عشواء .

وما إن مضى يذرع الشارع حتى اضطرب الثالوث القابع ، فانبرى لسان الكسيحة يشكو سوء الحال ، وانصرفت البنات الثلاث يأخذن بحاشية العباءة الفضفاضة فى صراع مرير ، ومثل الطاهى فى جرمه البدين يطرى بضاعته فى جمل بيانية تتفتح لها النفس ويتحلب الريق ، أما صاحب القدمين المتورمتين فما زال قابضا على لسانه يستغرق فى صمت متشابك موصول .

لقد ضاق غطريفنا ذرعا ، فاعتدل يهش بعصاه على سرب البنات اللجوج ، ورمى الطاهى بنظرة فيها ترفع واستكبار ، ولوى عنقه عن الكسيح لا يباليه ، والتفت إلى الرجل الصموت يرعاه بنظرة إشفاق ، وما كاد يخطو نحوه خطوات حتى فزعت يده إلى